

قسم اللغة العربية و آدابها
كلية الآداب و اللغات
جامعة حسبية بن بو علي / الشلف

ملتقى "أعلام حوض الشلف" ليومي 3 / 4 فيفري 2009-02-02.

عنوان المداخلة:

الشيخ سيدي عبد الباقي...

قراءة في السيرة و الأثر...

توطئة:

الشيخ سيدي عبد الباقي علم من أعلام منطقة غليزان. أربعة إحداثيات تداخلت وتمركزت حول شخصه لتجعل منه المصلح الاجتماعي، و الفقيه المربي، و السياسي الثائر. وهي:

1- نسبه الشريف الذي يمتد إلى الحسين بن علي بن ابي طالب رضي الله عنهما كمعطي جيني وراثي نمى في نفسه حسا رساليا، إستثمره ليرق بشخصه من مثقف منتج للمعنى ومهندس للكلمة إلى مصلح اجتماعي يترجم المعنى إلى سلوك تربوي بنائي، و الكلمة إلى موقف شريف يتدفق بمفردات الصدق و الإخلاص و التضحية وحب الوطن ...

2 - نوعية التكرين و التربية التي تلقاها في صباه و شبابه: فهو سليل أسرة عريقة توارث العلم أبا عن جد؛ فالتقاليد العلمية و الثقافة الدينية و الإمداد الروحي هي ابرز ما يميز سجلها التاريخي. و قد استثمر الشيخ هذا الرصيد الديني و الروحي والعلمي ليتشء زاوية لازالت تواصل عطاءها الروحي و الديني ، و تقدم خدماتها الاجتماعية إلى يومنا هذا. فهي منبر لنشر الوعي الديني، و دار قضاء لفك الخصومات و فض المنازعات.

3 - رصيده الثقافي في الفقه، و موهبته في نظم الشعر، و اتجاهه الصوفي كطريقة في فهم الدين و ممارسة التدين؛ كل ذلك مكنه من أن يكون مربيا ناجحا من خلال التماس المباشر و اليومي مع العامة عمل على ضبط سلوكياتها فقها، و تهذيب طباعها و تطهير

نفوسها و الارتقاء بها إلى المصاف الروحانية من خلال الإنشاد الديني والشعر الصوفي. و قد اتبع في ذلك استراتيجية عملية تتمثل في تنصيب وصي على مستوى كل "عرش" أو قرية يرصد المشكلات الاجتماعية من طلاق و منازعات الميراث... ليعرضها على الشيخ لينظر فيها لحلها. كما ينسق لبرمجة زيارات دورية تقام فيها حلقات الدرس الديني و ترداد فيها الأذكار و المواعض، لتجديد الطاقة الروحية و تفعيل الحس الديني و تعزيز أواصر المحبة التسامح و التضامن الاجتماعي.

و تجدر الإشارة هنا إلى أن هذا النشاط التوعوي الديني و الاجتماعي الذي قام به الشيخ في منطقة غليزان ليمتد إلى روع مستغانم و وهران فرضه الجهل المطبق والأمية المتفشية في القرى و الأرياف و التي تزامنت مع الحملة الاستعارية على الجزائر و التي عملت على تكريش هذا الوضع و زادته تعميقا. و هو ما يفيد أن الشيخ وجد نفسه أمام تحدٍ خطير يتمثل فساد المعتقد و امتزاج الدين بالهرطقات والخرافات و تصلب الذهنيات ... و بفضل تمكنه من قلوبهم و خلق القابلية للطاعة والتعلم لديم، استطاع أن يقلص من مساحة الجهل و مطاردة الخرافات و غرس التعليم الدينية و القيم الأخلاقية الصحيحة.

4 - الوضع الاستعماري الاستدماري الذي عاصره و عايشه كان سببا في بلورة وعييه السياسي و موقفه الجهادي مما دفعه إلى استثمار العاطفة الدينية لدى مريديه لبث الروح الجهادية في أوساطهم ليصنع منهم مجاهدين مرابطين كانوا في مستوى التصدي والتحدي. وبهذا نجد أنفسنا أمام علم ؛ هو رمز ديني و مصلح إجتماعي و مجاهد مرابط في أرض المعركة، تحرك ابتداء لتحرير الأنفس من الجهل لتتحرك هي بدورها انتهاء لتحرير الوطن. بهذا المعنى لا يكون للمتقف وجود إلا إذا كان فاعلا، و لا يكون للعالم قيمة إلا إذا كان عاملا.

نسبه:

عبد الباقي ابن أحمد بن محمد الطاهر بن محمد بن أحمد بن الطاهر نجل بن زيان بن العارف بالله الدال به عليه شيخ المشايخ في وقتهن سيدي محمد العربي المكنى بابن شاعة الشريف الحسني الإدريسي.(1) و يتسلسل نسبه ليصل إلى الحسن السبط بن فاطمة الزهراء رضي الله عنها.

مولده نشأته:

ولد في حدود العقد الخامس من القرن الثامن عشر. و لقد تلقى علومه في شيخ أجلاء، كالشيخ العارف بالله عبدالقادر بن عدة البوعبدلي، و الولي الصالح سيدي الحاج محمد بن أحمد بن عبدالرحمن العزاوي المعروف بـ "الهبري". و الصوفي الكبير الشيخ علي نور الدين اليشروطي. و قد تنوعت العلوم التي تلقاها بين الفقه وأصوله و علم العقيدة والمنطق و اللغة. كما حرص على الجمع بين الشريعة و الحقيقة. و نظرا للتعسف و المضايقة التي سببها المستعمر الفرنسي لمشايخ الوطن و علمائه لما لقيه من مقاومة منهم و تحسسه لخطورة موقفهم الثوري التوعوي مما اضطره لتجنيدهم بشكل إجباري لم يجد الشيخ سيدي عبد الباقي أمامه إلا مغادرة الوطن، فاختر التوجه إلى الشام حيث تشرب التعاليم العرفانية و الصوفية هناك علي يد الشيخ الجليل و العالم الصوفي "علي اليشروطي". و بعد فترة من الزمن قضاها في الشام عاد إلى الجزائر ليؤسس طريقة صوفية إصلاحية تربوية بوهوان بالقرب من ضريح سيدي الهواري(2). ونظرا لتزايد مرديتها، توسعت لتشمل إحدى عشر مركز بالمناطق المجاورة لوهران. وبمنطقة واد الجمعة بغليزان.

وفاته:

توفى سنة 1245هـ الموافق لـ 1927م و ضريحه في باب الحمراء بحي سيدي الهواري بوهران. و قد تولى مهام الزاوية بعده ابنه الأكبر الشيخ سيدي محمد الشاذلي إلى أن وفته المنية سنة 1930. ليخلفه أخوه الشيخ الحاج محمد النابلسي. و من بعده ابنه الشيخ المدني الذي لازال على قيد الحياة بالزاوية المتواجدة بمنطقة وادي الجمعة بغليزان.

(1) — للشيخ سيدي عبد الباقي كتاب "الجواهر" (مخطوط)

(2) — عبد الزحمن بن زيان: "التريف بالشيخ سيدي عبد الباقيين زيان الشعاعيو طريقته اليشروطية" مقال بمجلة "رسالة المسجد" العدد السادس. أكتوبر 2005.

و عن مناقبه و فضله و آثار علمه على أتباعه يقول عنه الشيخ سيدي الجيلاني بن عبد الحكم: "أرشد أتباعه و هذبهم بحيث لا تكاد تجد أحدا من أتباعه لا يحسن العقائد و أحكام

الوضوء أو الصلاة و آداب الطريق، جزاه الله خيرا و رحمه الله و هو من الشرفاء المشهورين الذين لا اختلاف فيهم." (3)

فلسفته الصوفية: القراءة و الدلالات...

بما انه مؤسس زاوية و صاحب طريقة صوفية، فإن رؤيته للتصوف اتسمت بالعقلانية وفي التأسيس، و الواقعية في الممارسة و ذلك من خلال:

1 – بناء الطريقة الصوفية على قاعدة صحيحة تحقق شرعية الممارسة و صفاء النظرة و سلامة المعتقد، و ذلك بالاحتكام إلى الكتاب و السنة لقيام تصوف سني صحيح و فاعل في بناء الذات الإسلامية روحيا و نفسيا و عقليا و عمليا، "ذلك لأن الحركة الصوفية على عهده كان قد أصابها لون من الانغلاق و الحشوية، و التشوش الفكري، فانحصرت في أكثرها في المسح على الأعتاب و الغلو في الطقوسية التي لا تمت بصلة للإسلام الصحيح" (4)

2 – إنطلاقا من هذا التأسيس العقلاني و التأصيل الشرعي للتصوف، حرص الشيخ سيدي عبد الباقي على تحقيق و تحقق "الوسطية" كمبدأ إسلامي في الحركة الصوفية فهما و ممارسة. و ذلك من خلال الجمع بين الشريعة و الحقيقة، ليسجل بذلك تجاوزا و ثورة – من باب التصحيح و الترشيده – على المسلمة البنيوية السائدة في الثقافة الصوفية لدى مختلف المدارس و التي مفادها أن اللحظة الصوفية هي لحظة قفز على الشريعة والإطواء كشحا عنها، و الانحراف في الحقيقة ابتداء و انتهاء. "فشعار الطريقة أن الشريعة والحقيقة صنوان لا يفترقان، و القفز إلى الحقيقة دون التضلع بالشرع و التشبع بمطلوباته و التشبث بمبادئه، هراء و هرطقة و ادعاء زائف كاذب لا يجد فيه المرأ حلاوة الحقيقة." (5)

(3) – الشيخ سيدي الجيلاني بن الحكم. "كتاب المرأة الجليلة في ضبط ما تفرق من اولاد سيدنا يحيى بن صفية". مطبعة ابن خلدون، تلمسان 1372 هـ ص: 314.

(4) – عبد الزحمن بن زيان. المرجع السابق ص: 41.

(5) – عبد الزحمن بن زيان. المرجع السابق ص: 42.

3 – و تأسيسا على هذه "الوسطية" التي دعا إليها الشيخ كأداة إجرائية لإصلاح الطريقة الصوفية لتخليص الذات من النزعة الهروبية الانعزالية التي حوّلت التصوف إلى

ضرب من الرهبانية و الروحانية المفرطة المخلة بتوازن الكينونة، سعى إلى تأصيل ما يمكن أن نسميه بـ: "التصوف الاجتماعي". "فالمرید ليس ملزماً بأن يمضي عمره في الانقطاع والتفوق في المغارات و الصوامع". (6). وأن ما يبرر ذلك:

أولاً: إن الدعوة إلى اجتماعية التصوف، ضرورة تملئها طبيعة الوجود الإنساني، فالإنسان إجتماعي بطبعه كما يقول الفلاسفة و علماء الاجتماع، و بالمقابل فإن التصوف في طبيعته الفردانية الانعزالية الانسحابية يصطدم باجتماعية الإنسان. و ربما هذا ما يفسر ضيق و انحصار دائرة مريديه في المجتمع و لم يحضى بالانتشار و لم يترسخ على سبيل التقليد الديني. و هذا أعطى حجة لعلماء النفس باعتباره ظاهرة مرضية تبرر عدم قدرة الفرد على التكيف و عززه عن الانحراط في الجماعة. و التصوف بهذا التوصيف الواقعي الذي ينم عن نظرة الشيخ الثاقبة، يتحول إلى مقوم و دافع للانخراط الإيجابي و الفاعل في الحياة الاجتماعية. لتتحول بذلك الأوراد و الذكار إلى مصابيح مضيئة للنفس فينعكس ضوءها على الواقع. بهذا "فطريقته تعتبر الحياة ذاتها وكل ما يتصل بها من خلق و امر يخدم مصلحة الإنسان الذي يتوجب عليه إتقان الخوض فيها". (7)

ثانياً: إذا كان التصوف في جوهره وسيلة تربوية إصلاحية، فإنه بتمثله للبعد الاجتماعي ينقل الإصلاح من بعده الفردي الضيق إلى أفقه الاجتماعي الواسع، من منطلق أن كل رسالة تربوية إصلاحية هي رسالة إجتماعية في طبيعتها و أهدافها.

و الملاحظ في هذا السياق – سياق التأسيس لاجتماعية التصوف – أن الظرف الاستعماري كان السبب الرئيس وراء هذه الدعوة، كما استوحينا ذلك من بواطن نصوص كتابه "الجواهر" و من سيرته الذاتية تحديداً، "حيث رأى أن الزمن الذي وجد فيه لا يناسب هذا اللون من الممارسة الصوفية، و إنما يلزمه أن يكون قلبه في خلوة مع الله... [وجسده منخرط في دنيا الناس] و كما يقول أبو الحسن الشاذلي رحمه الله (...الجسم في الحانوت

(6) – عبد الزحمن بن زيان. المرجع السابق ص: 43.

(7) – عبد الزحمن بن زيان. المرجع السابق ص: 43.

و القلب في الملكوت). " (8) إن الروح الجهادية و الموقف الثوري والحركة التحريرية للوطن، تفرض ضرورة الإعراض عن الخلوة وعدم الاكتفاء بالدعاء، و السعي إلى

الانخراط في ارض الرباط. و تحويل مفردات الأذكار و الأوراد إلى روح ثورية و وقائع اجتماعية و مواقف جهادية.

4 – العمل على محاربة الجهل و الأمية و نشر الثقافة الفقهية في أوساط المريدين، وأن الأمية ليست عائقا أمام تحقيق هذا المبتغى. وقد تجاوز مشكلة الكتابة باعتماد المشافة استنادا إلى آلية التبسيط، حيث تمكن من تقديم المبادئ الفقهية في سياقات لفظية دارجة. وقد استطاع المريدون أن يحفظوا و يستوعبوا كل ما يتلقونه من أمور العبادة و التوحيد. و الشيخ في مسعاه هذا إنما يريد أن يرشد و يصحح الممارسة الصوفية لدى مريديه من خلال ضبطها فقها، حتى لا تتحرف عن مسارها الديني. فلا يعقل أن ينخرط إنسان جاهل في التجربة الصوفية. "فالمريد عنده إن يكن جاهلا بأمور دينه و غير آبه بتحسين صلته بربه أولا، فهو ليس أهلا لأن يكون من أهل الحقيقة. فالمريد ملزم بالاستقامة على أوامر الله و تجنب نواحيه من السمع و الطاعة. و هذا شرط من شروط صحة الانتساب للطريقة." (9)

5 – بهذا الضبط الفقهي الشرعي، و النظرة الوسطية، و التوجه الاجتماعي للتصوف، تمكن الشيخ من غرس و تأصيل النزعة الثورية في نفسية المريد فضلا تحقيق الرغبة في النجاة و الخلاص. " فقد كانت هذه الطريقة بفضل مؤسسها معروفة بأنها ثائرة على الأوضاع الظالمة السائدة حينئذ، أي الثورة علة الظلم و على الجهل، و على القبول والتسليم بالأمر الواقع...فتأثرت على النفس بمقاومة ظلمها و رعونتها و تأثرت على المؤسسة الرسمية بانعزالها عنها، و بکراهية قوانينها و أعرافها، فصنفتها الاستعمار في خانات المؤسسات الراضية المتمردة." (10)

(8) – عبد الزحمن بن زيان. المرجع السابق ص: 43.

(9) – عبد الزحمن بن زيان. المرجع السابق ص: 42.

(10) – عبد الزحمن بن زيان. المرجع السابق ص: 44.

أ / عبدالقادر بلعالم

قسم اللغة العربية/ فرع العلوم الاجتماعية